

## الغزال وعلم النفس

الاستاذ حمدى الحسينى

الوجدان

—٤—

تحدثنا فى مقالنا السابق عن العلم أو المعرفة أو الإدراك فى نظر الإمام الجليل أبى حامد الغزالى وبيننا ما عنده عن علم الممارسة وعلم المكاشفة أى المعرفة الشعورية واللاشعورية فظهر ما سماه بالعلم ظهوراً واضحاً وأضاه ما سماه إيماناً إضاءة جميلة وأشرق ما نمته باليقين إشراقاً قويا باهراً ساحراً .

ونحن الآن نتحدث عن الوجدان أو ما يسميه الإمام الغزالى بالحال . ولكننا نرى من الخير — قبل أن نبدأ بهذا — أن نذكر التعريف النفسى للوجدان لنستطيع المقابلة بينه وبين ما سترناه من قول الغزالى فى هذا الموضوع .

( يقول النفسيون إن الوجدان يطلق على ما نجد فى نفسك من لذة وألم يصحب الإدراك أو التذوق ، فإذا ما حال حائل دون مسير أية عملية عقلية أو جسمية أو عاقها عن المضى فى سبيلها ، كان التأثر مصحوباً بالألم . إما إذا سارت فى طريقها حرة لا يعوقها عائق كان التأثر سروراً وارتياحاً .

وهذا الوجدان يصحب كل عملية عقلية كما يصحبها الإدراك؛ فالوجدان يشمل اللذة والألم والفرح والحزن والفضب والندم ، وكل انفعال نفسانى ، كما يشمل العواطف أيضاً . وأت الذى تتأثر بهذه الملاقة التى بينك وبين الشئ الذى تشمر به وتنفعل بتلك الملاقة ) .

هذا ما يقوله علم النفس فى الوجدان الذى يسميه الغزالى بالحال . ولنسمع الآن ما يقوله الغزالى عن الحال الذى يعرفه علم النفس بالوجدان .

يقول الغزالى فى تحليله لإحدى العمليات العقلية وهى التوبة ما يأتى : ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم . وحال . وفعل . فالعلم الأول والحال الثانى . والفعل

ناحية أنها تفر أصحابها فيظنونها نافعة لهم ، مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئاً ، ألا ترى فى السراب هذا الأمل المطعم ذل النهاية المؤبسة ولأداء هذا الممتى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » . وحينما ينظر إليها من ناحية ما يلزم بصاحبها من اضطراب وفزع ، عندما يجد آماله فى أعماله قد انهارت . ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ويترزّل كيانه ويصبح كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج؟ ألا يشمر هذا الرجل بمصيره اليأس ، وهلاكه المحتوم؟ ألا يصور لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يمجثون إلى أعمالهم ، فلا يجدون لها ثواباً ولا نقماً ، ولتصوير ذلك جاء قوله سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج ، من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجد الله نوراً فاله من نور » .

أحمد أحمد بروى

لكلام بية

نحت صيب من المطر قد صحبه ظلمات ورعد وبرق ، أما الرعد فتناه فى الشدة إلى درجة أنه يود انتقاء بوضع إصابه إذا استطاع فى أذنه ؛ وأما البرق فيكاد يحطف البصر ، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء الحيل . وتجدد تمدد هذا التشبيه فى قوله سبحانه : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً... أو كصيب من السماء... » . ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا أنه حينما ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ربيع شديدة لا تبدأ حتى تبدأ لأنها فى يوم عاصف ، ألا ترى هذه الريح كقذيفة بتديد ذرات هذا الغبار شذر مذر ، وأنها لا تبقى عليه ولا تذر ، وكذلك أعمال الكافرين ، لا تلبث أن تهب عليها ربيع الكفر حتى تبدها ولا تبقى عليها ، وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا ربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شئ » ، ذلك هو الضلال البعيد . وحينما ينظر إليها من

تقف الآن قليلاً لتشير إلى ما كنا ذكرناه في المقالات السابقة من أن نفسية الامام الغزالي كانت سلبية بكل ما في السلبية من معنى وها نحن اولاد نرى هذه السلبية واضحة في معرفته للفرائز البشرية ووصفه لها وتعليقه عليها ، فانه يقسم الفرائز إلى قسمين ، منجية من نار جهنم ومهلكة بهذه النار، فمن الفرائز المنجية من النار الخوف والخضوع والانتقاد وما يتبع هذه الفرائز من الرغبات في الفقر والزهد والقناعة .

ومن الفرائز الغضب والتغلب والسيطرة وما ينشأ عنها من الرغبات في الانتقام وحب الجاه والمال والشهرة والملح .

ونحن ذاكرون هنا طائفة من الفرائز على الترتيب الذي اتخذته لنفسه في ذكرها - انرى أن الغزالي قد فهم الفرائز فهماً علمياً صحيحاً مع المعرفة بأنه أراد - ككرب ديني عظيم - أن يستعملها في خدمة عقيدته الدينية القوية ويقينه الاسلامي المستوي على قلبه وانسمع الآن ما يقوله عن غريزة الخوف التي جعلها من الفرائز المنجية من الهلاك ، يقول :

( إن الخوف عبارة عن تألم القلب واحراقه بسبب توقع تكرره في الاستقبال . فالعلم بأسباب الكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه ، وذلك الاحراق هو الخوف ، ثم إذا كملت المعرفة أوردت جلال الخوف واحترق القلب ، ثم يفيض أثر المحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والاصفرار والفسية والزهقة واليبكاه ، وقد تشقق به المرارة فيفيض إلى الموت ، أو يصمد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس ) . أما فضل الخوف في نظر الغزالي ككرب فلا أنه قانع للشهوات ، يقول : لا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضله بقدر ما يحرق من الشهوات بقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات .

ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف . وكيف لا يكون الخوف ذا فضل وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال القاضية المحمودة التي تقرب إلى الله ذاتي . وأما غريزة الغضب فيضفها الغزالي بهذا الوصف العقيق البديع الهارح يقول :

( إن الله تعالى خلق الحيوان مرضاً للفساد في داخل بدنه وأسباب

الثالث ، والأول موجب للتأثر موجب للتأثر إيجاباً اقتضاء اطراد سنة الله . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب فإذا عرف هذا معرفة محققة ييقين غالب على القلب نار من هذه المعرفة تألم للقلب ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، اتبعته من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصد إلى فعل ) .

ثم يقول في موضع آخر : ( أن اللذة تابعة للادراكات . والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها في نيلها مقتضى طبيعتها الذي خلقت له فإن هذه الفرائز ما ركبت في الانسان عيشاً ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور وهو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشقى والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبيعتها . وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الأبصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الفرائز عن ألم ولذة بالاضافة إلى مدركاتها ) .

نرى في قول الامام الغزالي هذا صورة واضحة الأجزاء دقيقة التركيب متناسبة الأقسام تطابق في وضوح أجزاءها ودقة تركيبها وتناسب أقسامها ، الصورة التي رسمها علم النفس للوجدان تمام التطابق . فقد عرف الغزالي هذه العلاقة الدقيقة المعجبية بين المعرفة والوجدان والنزوع ، وعرف أن العلم أو الايمان أو اليقين يثير الوجدان وأن هذا الوجدان قد يكون لذة وقد يكون الماوان اللذة تجلب والألم يدفع وأن هذا الجلب وهذا الدفع هما النزوع ، وأن هذا النزوع هو الايجابية والسلبية في السلوك وأن بين طيات هذه السلبية وهذه الايجابية السلوك المادي والسلوك الشاذ .

بل في هذين السلوكين الخير والشر والتفضيلة والرذيلة والقوة والضعف والشجاعة والجبن ، بل في هذين السلوكين كل تاريخ البشرية من أقصى أزمنة التاريخ إلى أن تبيد الأرض ومن عليها . هذا هو الوجدان أو الحال عند الغزالي . هو اللذة أو الألم يصحب الادراك أو المعرفة أو العلم أو بصحب النزوع أو الإرادة أو العمل ، وما دام الحال هو اللذة والألم عند الغزالي كما هو الوجدان عند علماء النفس المعاصرين بالضغط فمن الحق أن نعرف ما عند الغزالي عن الفرائز التي هي منابع الوجدان أو مساح اللذة والألم لا سيما الفرائز القوية العريقة في القدم التي يحافظ بها الانسان على حياته وينافح بواسطتها دون بقائه .